

فقدان الثقة

للأستاذ أحمد أمين

لعل أسوأ ما نتمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض ؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً ، والثقة تجعل الفرد أمة ؛ الثقة تجعل الأجزاء كتلة ، وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام ، بل يجعل أجزائها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكابة

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة ؟ ثم هي لا تنفي شيئاً ولا تميد ثقة

تصور أسرة فقد الزوج فيها ثقته بزوجه ، والزوجة بزوجها ، ثم تصور كيف تكون حياتها : نزاع دائم ، وسوء ظن متبادل ، وانتظار للزمن ليتم الخراب

وهكذا الشأن في كل مجتمع : في المدرسة ، في الجيش ، في الحزب ، في القرية ، في الأمة

بل مالنا نذهب بعيداً والانسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه

فدقت صدرها يدها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا ، ثم أفكرت لحظة وقالت : إذا كنت أنت زعم أنني قلت ، فأظن أنني قلت . . .

قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هي شيئاً من هذا . أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق

قالت : بل قل أربع غلطات جميلة من فن الذوق . إن الرجل الظريف القوي الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدثت المرأة قال (ح) : لتضحك منه ؟

قالت : لا بل لتضحك له

قلت : فلي اليك رجاء

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل

فإذا قلت لها وماذا قالت ؟

(لها تمة) (ملطاً)

محمد زكريا

فقد نفسه ، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ولا أى عالم وصانع مجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه للدرجة ما ؛ وكل من الكفايات ضاعت هباء لأن ذوبها فقدوا ثقتهم بأنفسهم ، واعتقدوا أنهم لا يحسنون صنماً ولا يجيدون عملاً

وكل ما ترى من أعراض الفشل في أمة سببه فقدان الثقة ؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم ببعض ، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة ، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأسانذتهم والأساتذة بطلبهم ، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة

كل نظمنا — على ما يظهر — مبنية على فقدان الثقة ، فوظائف « المفتشين » في جميع مصالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة ، فالمفتش في الترام والسيارات العامة مبناء ضعف الثقة « بالكسارى » ، ومفتش المالية ليراقب حركات مرءوسيه حتى لا يختلسوا أو يزوروا ، ومفتشو الوزارات ليروا إلى أى حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملاً آخر غير هذا ، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجههم وجهة صالحة ، ويتعاونوا معهم على رسم الخططة القويمة ، ويصححوا الخطأ ، ويكملوا النقص ، ولكنهم — في الأغلب — وقفوا فقط موقف الضابط بضبط الجريمة ، والصائد يرقب الفريسة ، لا موقف الهادى المرشد والناسح الأمين

فإن أردت « بنداً » واحداً من « بنود » ما ينفق من الأموال في سبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين في جميع مصالح الحكومة

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فالمراجعون ومراجعو المراجعين ؛ والأوراق تمر من يد إلى يد ، ومن قلم إلى قلم ، ومن مصلحة إلى مصلحة ، ومن وزارة إلى وزارة . كل ذلك له أسباب ، أهمها « فقدان الثقة »

وإن شئت حصر ما يسهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكف بمرتبات المفتشين ، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء

و «فتى» يضع الكتب كل يوم في أماكنها ، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا في المكسب والخسارة ؟ لاشك أننا سنفقد كتباً يسرها بمض المتردين ، وهذا هو كل الخسارة ، ولكننا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش ، ونوفر أزماناً طويلة تصرف في عمليات الجرد والحصر ، وتنتشر الثقة بين المطالعين ، ونشعرهم بأن المكتبة في حمايتهم ومحت اشراقهم ، فنتمنى فيهم الشعور بالتبعية ؟ فإذا كان هذا مكسبنا وهذه كل خسارتنا ، قالى النار هذه الكتب المفقودة ، وحسنت عين كل من ينظر في عمليات الحساب إليها وحدها ، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التي ربحناها

وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة في المصالح المختلفة ، بل إنى أشتري نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال ، وشعور الناس بالطمأنينة بأى ثمن ، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستدرت في تجربتي ونظريتي ، وآمنت بوجود الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذى أفسده النظام القديم ، وقضى على نفسه وعلى شعوره ، ولأنتظر جيلاً جديداً نشأ في احضان « الثقة » والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية في العمل في دائرة ضيقة من القوانين المعقولة

وهكذا الشأن في جميع الأمور السياسية والاجتماعية ، ثقة أفراد الحزب ببعضهم يعض - ولو مراعاة للصلحة - أمنهم للنجاح ، وأقرب لتحقيق الغرض ؛ وثقة الجمعية برئيسها ، والرئيس بأعضائها - ولو تصنعا - أقرب لأن يتقلب التصنع خلقاً وقد رأينا - دائماً - أن المدوى في الممانى كالمدوى في المحسات ، فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب ، والضحك يبعث الضحك ، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها . وبعد ، فلا تزال ترن في أذنى كل من سمعها من أستاذ انجائزى كان في الجامعة : « إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبي ، ولا تمنحون ثقتكم المصرى ، فكيف تمشون ؟ »

أحمد أمين

الدين ذكرنا ، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق في سبيل فقدان الثقة لم يُبعد

وليست المصيبة كلها في الأموال ، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظنا ما يستوجب فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيق في إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبنها كلها « فقدان الثقة »

ثم هناك عقول للتائبين وكبار أولى الأمر في الأمة تفكر ثم تفكر ، وتقدر ثم تقدر ، وتضع الخطط تلو الخطط ، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات ، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الحياة والسرقة والتزوير ، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختل ، وهى إنما تريد بذلك في « فقدان الثقة »

أضف الى هذا ما نسبته هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف ، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها إنما شرعت له ومن أجله وبسبب فقدان الثقة به ، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكجرم وكزور ؛ فيفقد الثقة بنفسه ، ويعمل في حدود ما رسم له ، ويشعر بالسلطات المختلفة عليه ؛ فلا يجرؤ على التفكير بعقله ، ولا يجرؤ على تحمل تبعة ، ويفتر من البت في الأمور ما وسعه الفراق ، حتى يكون بما من دائم من الأسئلة والمناقضات - وهذا هو سر ما نراه من بطء في العمل ، وركود في الحركة ، وضيق لمصالح الناس ، إذ لا شئ يبعث الثقة في المردوس مثل أن يثق به الرئيس ، ولا شئ يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من « فقدان الثقة »

أنا كفيل بأنألو قلبنا كل هذه النظم وأسا على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أبقاضها ، ثم بنيناها على أسس جديدة من الثقة البحتة ، ما خسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأفئس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقة بالموظفين والمتردين من المطالعين فاستغنيا عن مراقب واستغنيا عن مراجع واستغنيا عن مفتش وهكذا ، واكتفينا بمجير للكتب